جمال باشا في سورية: هل هو قومي أم انفصالي أم اتحادي

(حسن كيالي)

ترجمة عبد اللطيف الحارس

لا تزال الأعمال السياسية والأدوار المتعددة التي لعبها أحمد جمال باشا (1872 ـ 1922) في حكومة الأمبراطورية العثمانية المركزية وفي المقاطعات، مُحاطةً بالغموض. ويلف هذا الغموض، إلى جانب جمال باشا، كل القيادات البارزة لجمعية تركيا الفتاة في العهد الدستوري الثاني. ومن الغريب أن جمال باشا لم يدرس بشكل وافٍ، علماً أنه قد ترك، وبعكس القادة الآخرين لفترة تركيا الفتاة، مذكرات شاملة نشرت بثلاث لغات بعد موته مباشرةً عام 1922[1]. كما أنه نشر أيضاً، ولتمرير إجراءاته الصارمة في سوريا، كراسة سياسية باللغات العثمانية والعربية والفرنسية[2]. وعلى الرغم من أن المؤرخين يرجعون أحياناً إلى مذكراته والإيضاحات، إلا أن هذه المنشورات إضافة إلى العمل الذي كتب بإشراف جمال عن بعض الآثار في سورية[3]، (والتي تعتبر

---

(1) Cemal Pasa, Hatirat 1913-1922 (Istambul, 1992), Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919 (New York: George H. Doran Co., 1922); Erinnerungen (Munich: Drein Maskan, Verlage, 1992).

الإحالات هنا إلى النسخة «Hatiralar» (اسطنبول، 1977)، تحرير ابنته بهجة جمال.

(2) Alive Divan-I Harbisinde Tetrik Oluman Meselt-i Siyasive Hakkingda Izahat or la vérité sur la question Syrienne. Istanbul, 1916.

(3) Alte Denkmaler aus Syrien, Palästina und Westarabien (Berlin: Verlag Georg von Reimer, 1918).

المراجع أن جمال باشا هو مؤلف هذه الكتابات)، لم تكن كافية لدفع المؤرخين إلى دراسة سيرة هذا المؤلف. وبالمقارنة، نرى أن إهمال جمال باشا يتعارض مع الاهتمام المعطى لمدحت باشا، القائد العثماني الآخر البارز الذي خدم كحاكم لسورية قبل حوالي ثلاثة عقود. ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على جانب من أكثر جوانب عمل جمال باشا السياسي، إثارةً للجدل والخلاف، وبالتحديد توليه لمنصب قائد الجيش الرابع واعتباره رجل سوريا القوي خلال فترة الحرب العالمية الأولى.

إن التوجهات الأيديولوجية لجمال باشا والمظاهر السياسية لشخصيته قد حجبتها صورته الراسخة كإداري قاس. وتعود هذه الصورة بالأساس إلى إعدامه قادة القوميين العرب في بيروت ودمشق في سنتي 1915 و1916. إضافة إلى أن الأحداث التي وقعت في تلك الفترة وما رافقها من إجراءات (متطلبات فترة الحرب والمجاعة)، قد ثبتت صورة القساوة هذه. والسؤال الذي يجب أن يطرح هو: ما هي الدوافع التي وقفت وراء سياسات جمال باشا العنيفة، ليس فقط في سورية وإنما أيضاً في أماكن أخرى؟ بالنسبة لحكمه في سورية، بشكل خاص، تعزو المصادر التاريخية هذه التصرفات إلى ثلاثة برامج سياسية مختلفة. لقد وصف جمال بكونه قومياً تركياً، ورجلاً يمتلك طموحات انفصالية سلالية، وعثمانياً بميولات إسلامية. وفي تقييمنا لحكم جمال باشا في سورية على ضوء هذه الصور الثلاث، سأطرح على المناقشة مسألة النظر إلى هذه المرحلة من حكم جمال باشا من زاوية عمله العام. ولذا فإنه من المفيد أن نبرز أولاً أصوله وعمله.

مخطط سيرته الذاتية

ولد جمال باشا في ميتيلان سنة 1872 كابن لصيدلي عسكري. وتخرج في الأكاديمية الحربية سنة 1895. وكان أول تعيين له في «هيئة الأركان العامة» في اسطنبول، حيث التحق بوحدة الأشغال في الجيش الثاني المرابط في أدرنة، وفي عام 1898 انتقل إلى الجيش الثالث في سالونيك. عين أولاً مفتشاً عسكرياً على الطرق الحديدية ثم لاحقاً في المركز الرئيسي للجيش الثالث،

وقد ساهم في التنظيم الإقليمي لحركة المقاومة السرية ضد عبد الحميد الثاني. التحق بجمعية الاتحاد والترقي وخلال ثورة تركيا الفتاة في تموز (يوليو) 1908 ظهر كقائد بارز للجمعية. شارك في أول بعثة أرسلت من مركز الجمعية الرئيسي في سالونيك إلى اسطنبول، وحصل على ترقية إلى رتبة مقدم.

بعد ثورة تموز (يوليو) 1908 ذهب جمال إلى الأناضول مع بعثة إصلاحية. وعندما وقعت الثورة المضادة في اسطنبول في نيسان 1909، التحق مجدداً بوحدات الجيش الثالث (جيش الحرية) الذي أخمد الانتفاضة. وحصل لاحقاً على منصب حاكم مقاطعة في إسكودار، اسطنبول الآسيوية (أيار 1909). وأدى إخلال الأرمن بالأمن في أضنة وخطر التدخل الأجنبي إلى تعيينه حاكماً لأضنة (آب 1909). وفي عام 1911 أصبح حاكماً لبغداد. وعند وقوع حرب البلقان عام 1912 ساهم بمهمات ميدانية في تراس كقائد للوحدات الاحتياطية ورقي إلى رتبة كولونيل. وبعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي ضد حكومة كامل باشا (كانون الثاني/يناير 1913)، والذي ساهم جمال في إعداده، رقي إلى رتبة جنرال، وصار قائداً للجيش الأول في اسطنبول وكذلك حاكماً عسكرياً للعاصمة.

ومن هذه اللحظة بدأت مذكرات جمال باشا، ومما يثير الفضول أنه لم يذكر المراكز العسكرية العالية وتجربته السياسية في العقود التي سبقت عام 1913. ويوضح هذا الاختيار بعض الأهداف من كتابة مذكراته. فعندما بدأ بكتابة مذكراته في المنفى في السنة التي تلت انهيار الأمبراطورية، كان يحتاج إلى أن يبرىء نفسه ويعيد الاعتبار لشخصيته وذلك بإظهاره لأكثر أدواره بروزاً قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها.

وفي عام 1913، ثبّت جمال باشا وضع جمعية الاتحاد والترقي في العاصمة وذلك بقمعه لحركة الحرية والتحالفات المعارضة، وإرساله لقادتها إلى المشنقة. وخدم في الحكومات التي خضعت لهيمنة الجمعية في سنوات 1913 ـ 1914، أولاً كوزير للأشغال العامة، ثم لاحقاً كوزير للحربية. وكان له الفضل في تحديث الأسطول العثماني.

كان معروفاً بميوله نحو فرنسا، ولذا ذهب جمال في حزيران (يونيو) عام 1914 إلى باريس ساعياً إلى إقامة تحالف في أوقات الحرب مع فرنسا، ولكن دون جدوى. وخلال الحرب العالمية الأولى، خدم كقائد للجيش الرابع والحاكم الفعلي لسورية مع احتفاظه بحقيبة وزير. وقاد الحملات المشؤومة ضد مواقع الجيش البريطاني على طول خط قناة السويس في شباط (فبراير) 1915 وآب (أغسطس) 1916.

وكحاكم لسورية في زمن الحرب، ساءت سمعة جمال باشا، لإعدامه بعض القادة العرب بسبب تعاطفهم مع الأجانب، وأهدافهم القومية المزعومة؛ وأيضاً بسبب إجراءاته الصارمة في إدارة موارد القمح. لقد قام جمال بمشاريع بناء وحماية هدفت لتحسين الظروف المادية في سورية خلال الحرب. واستقال في كانون الأول/ ديسمبر 1917 وعاد إلى اسطنبول. وبعد الهدنة في نهاية عام 1918، ذهب جمال إلى الخارج مع قادة آخرين من جمعية الاتحاد والترقي. أما هدف مساعيه في آسيا الوسطى واغتياله عام 1922، فيكتنفهما الغموض أيضاً، على الرغم من اختلاف تجربتي عمله في كل من آسيا الوسطى وسورية.

جمال باشا: القومي التركي

الخاصية الأكثر رسوخاً في شخصية جمال باشا هي كونه قومياً تركياً. وتنبع هذه الخاصة، وإلى حد بعيد، من مركزه الرفيع في جمعية الاتحاد والترقي. وهو معروف إلى جانب كل من أنور وطلعت، على أنه واحد من الترويكا الذين لم يسيطروا فقط على الجمعية وإنما أيضاً على الحكومة. وعرف بتعاونه العميق مع نظام حدد، بشكل متعارف عليه، (وعلى الرغم من عدم صحته) على أنه أكثر أشكال القوميات التركية تطرفاً (الدعوة إلى الطورانية التي سعت إلى تتريك كل المجموعات الإثنية غير التركية)، مما دفع المؤرخين إلى صبغه بنفس ألوان القومية التركية التي صبغوا بها فترة حكم تركيا الفتاة برمتها.

لقد حصل جمال باشا على مراكز في المقاطعات الآسيوية البعيدة حيث كانت الإثنيات القومية تتبلور في حركات سياسية. وسياساته القاسية تجاه القادة

العرب والأرمن ثبتت صورته كقومي تركي. وبطريقةٍ ما ساهمت مذكّراته في تدعيم هذه المفاهيم؛ مع أنها قد كُتبت بالأساس لتبرئة الباشا من آثار المذابح والإعدامات. وأكثر من ذلك، فإن المذكرات قد كُتبت بعد انهيار الأمبراطورية وخلال الأيام الأولى لحركة المقاومة التي انطلقت من الأناضول. لقد تصور جمال باشا أن هناك فرصةً له لإعادة اعتباره السياسي[(1)] ضمن هذه الحركة الجديدة، فهناك نبرة قومية تركية واضحة في أجزاء من مذكراته.

إن إجراءات جمال ضد القادة السوريين عام 1915 ـ 1916 تنسجم وأسلوب ممارسة سلطاته في وظائفه السابقة. لقد كانت له ميزته الخاصة باستخدام القوة في سعيه لإيجاد حلول للمشاكل السياسية، والاجتماعية والاقتصادية. عام 1913، عندما استلم مهماته كحاكم عسكري لاسطنبول بعد اغتيال الصدر الأعظم محمود شوكت باشا، قام باعتقال «المتهمين المعتادين» من التحالف المعارض واتهمهم بالمشاركة في الجريمة، وهذا ما أمن له الذريعة لإزاحة معارضيه السابقين والمحتملين عن طريق النفي أو الإعدام:

> لقد تعبنا من انحدار الحكومة إلى موقع الضعف. ولذا قررنا معاقبة المجرمين بأقسى طريقة وبدون رحمة وبصرف النظر عن مكانتهم الاجتماعية. ولذا فإننا نعتقد أن أمثالهم من الآن فصاعداً سوف يتصرفون بطريقة لائقة[(2)].

كما أن نفيه للمتحرشين بالنساء من اسطنبول («خطوة جبارة اتخذت من أجل تحرير نساء اسطنبول»)[(3)] توضح طريقة معالجته للمشاكل الاجتماعية.

واستمر جمال في سورية بتبنيه الأهداف نفسها واستخدامه لتكتيكات مشابهة. وذلك عندما واجه فيها واحدةً من المضايقات الاقتصادية الأساسية في زمن الحرب والتي حدثت بسبب انخفاض قيمة الأوراق النقدية الصادرة عن

(1) Hatiralar, 49.
(2) Ibid., 55.
(3) Hatiralar, 21-22.

الحكومة لعدم قبولها من قبل السكان المحليين. فهدّد جمال باشا بالنفي العشوائي عدداً من التجار والنبلاء السوريين، ما لم يتعهدوا برفع قيمة الأوراق النقدية الموضوعة في التداول، وقد نفذ تهديده عندما لم ترتفع قيمة هذه الأوراق النقدية[1]. والأكثر دلالةً على استمراره في سياسته هذه، هو ما حدث عام 1915 ـ 1916 عندما أرسل القادة السوريين إلى المشنقة لإبعاد منافسيه السياسيين الذين يحتلون مكانة محلية هامة، وقام تبريره لهذا العمل على الادعاء بممارسة هؤلاء القادة لنشاطات قومية انفصالية. وأدى إعدام جمال للقادة المحليين إلى إنعاش الحركة القومية التي كانت في بدايتها في سورية، وإلى إلصاق لقب القومي التركي بجمال باشا.

جمال باشا الانفصالي

الوثائق الروسية التي تعود إلى تشرين الأول/أكتوبر 1915 تشير إلى الادعاء بوجود خطة من قبل جمال باشا لإقامة دولة مستقلة له في سورية[2]. وفي معلومات وصلت إلى الحلفاء، عن طريق أرمني مقيم في بخارست، كان على اتصال مزعوم مع جمال من خلال عملائه، تعهد جمال بالتمرد على حكومته والسماح بتسليم اسطنبول للحلفاء في مقابل الاعتراف به كحاكم لأراضي الأمبراطورية الآسيوية[3]. إمكانية التعاون مع جمال أصبحت موضوع مراسلات مطولة بين الحلفاء بين كانون الأول 1915 وكانون الثاني 1916، عندما تم التخلي عن هذه الفكرة.

في البداية رحبت كل من إنكلترا وروسيا بمبدأ الاتفاق السياسي مع جمال. وأملت روسيا وبسبب موافقة جمال على التخلي عن اسطنبول

(1) Ali Faud Erden, Surive Hatiraleri (Istanbul, 1954), 241-2; Gerhard Wiegand, ed., Halbmond im Letzten Viertel: Briefe und Reiseberichte aus der alten Türkei von Theodor und Marie Wiegand: 1895 bis 1918 (Munich: Bruckmann, 1970), 248.

(2) Zeine Zeine, The Struggle for Arab Independence (New York, 1977), 113.

(3) PRO. FO 371/2767. File no. 34, No. 17 (878). Secret. Buchanan to Grey. Petrograd, January 2, 1916; PRO. FO 371/2492. File no. 200744. December 29, 1915.

للحلفاء، أن يؤدي اندفاعه لبلوغ طموحاته المزعومة، إلى تسليم اسطنبول إلى الروس بحسب اتفاقية القسطنطينية لربيع عام 1915. كما أن فشله سيكون مرحباً به أيضاً لأنه سيؤدي إلى خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار داخل الأمبراطورية، وهذا ما سيخدم أيضاً أهداف الحلفاء[1]. ووافقت بريطانيا الروس على الفوائد الجلية التي يمكن أن يجنيها الحلفاء من مثل هذا الصراع الداخلي، ولكنها رأت أن على جمال باشا أن يتوصل إلى اتفاق مع العرب قبل تنفيذ مخططاته[2]. وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه المراسلات، كان مكماهون والشريف حسين على وشك الانتهاء من اتفاقية التعاون المتبادل في مقابل الدعم البريطاني «للمطالب العربية».

وبالرغم من أن احتمال الانقلاب بقيادة جمال كان وهمياً أكثر منه حقيقياً، فإن الحلفاء قد أعطوه اهتماماً جدياً. وأظهرت الاتصالات حول هذا الموضوع الاختلافات بين الحلفاء وكانت نذيراً بالاختلافات المستقبلية التي ستنشأ من خلال محاولات التقريب بين المصالح المختلفة داخل مخيم الحلفاء. وفي مقابل تثمين منافع الاتفاق مع جمال، كشفت لندن للحكومة الروسية عن محادثاتها مع العرب، مع التحذير بأن جمالاً يجب أن لا يعرف بهذه الاتصالات[3]. أما ردة فعل الفرنسيين تجاه احتمال التعاون مع جمال فكانت في منتهى التحفظ بسبب مخططاتهم الخاصة في سورية[4]. ومن وجهة النظر البريطانية، فإن حكم جمال لسورية لن يشكل أي مشكلة إذا أمكن دفع

---

(1) PRO. FO 371/2492.

(2) PRO. FO 371/2492. Grey to Buchanan. No. 3123 (201112). Contidential. London, December 29, 1916.

(3) PRO. FO 371/2767. Grey to Buchanan. No. 3148. Secret (telg.). London, December 30, 1915.

(4) الحكومة الفرنسية «رفضت فكرة أي اقتراح يتضمن احتفاظ الأتراك بالقسطنطينية، وتوقعت موقفاً مماثلاً من جانب الحكومة الروسية بالنسبة لأجزاء الإمبراطورية العثمانية التي كانت فرنسا مهتمة بها»:
PRO. Fo 371/2492. Buchanan to Grey. No. 3124. Confidential. December 31, 1915.

العرب للتعاون معه[1].

كانت لندن تشكك بتمرد جمال ولكنها شعرت أنه ينبغي تشجيع مثل هذه الخطوة إذا ما تحققت. حكومة الهند بدورها لم تعارض فقط إعطاء أي تشجيع لجمال باشا ولكنها تحفظت أيضاً على أي اتفاقات يمكن للندن أو للقاهرة التوصل إليها مع العرب والتي يمكن أن تعدهم بدولة عربية كبرى[2]. السير أرثر هرتزل من مكتب الهند، كتب لمكتب وزارة الخارجية أنه «من الصعب جداً على جمال باشا أن ينجح في إغراء العرب بقبول مخططه لتأسيس أمبراطورية تركية آسيوية، إذا كان ينوي تنفيذ هذا المشروع جدياً. . .»، من الواضح، أضاف السير، «إن هناك خسارة لا يمكن تعويضها لمصالح بريطانيا في كل من مصر، والجزيرة العربية، والعراق، وكذلك إساءة إلى سمعة حكومة الملك فيما يتعلق باحترام اتفاقاتها، إذا ما أصبح معروفاً للعرب بأن هناك دعماً أعطي لمخطط يؤدي إلى التنازل عنهم إلى أعدائهم»[3].

ويبدو أن الحكومة الألمانية كانت على علم بأن جمال باشا كان مشكوكاً بولائه. إلا أن هذه الاتهامات تم نفيها بسرعة من قبل السلطات الألمانية. ووصف لودفيغ جمالاً بأنه «وطني متألق كبير يمتاز بخصائص ثورية». وعندما واجه لودفيغ جمالاً بمقالات في جريدة «Le Temps» (في 25 و29 تشرين الثاني/ نوفمبر) والتي ركزت على ادعاءات اختلافه مع اسطنبول ومضايقته لزملائه في العاصمة، وصف جمال المقالات بأنها محاولة من الحلفاء لإعطاء انطباع خاطئ بأن هناك عدم انسجام بين قادة تركيا الفتاة وجمال وحلفاء تركيا. فكتب لودفيغ إلى برلين بأنه إذا كان جمال متعاوناً حقاً مع الحلفاء، فإن «Le Temps» ما كانت لتنشر مقالات من هذا النوع؛ ولا كان جمال باشا قد قمع دعاة اللامركزية في سورية بهذه القوة. وأضاف، بأن الضباط الذين

(1) PRO. FO 371/2767. Grey to Buchanan. No. 209. File no. 34. Secret. London, December 30, 1915.

(2) Bush, Britan, India, and the Arabs (Berkeley, 1971), 92.

(3) FO 371/2767. No. 3824. January 10, 1916.

بإمرته سيعارضونه بقوة، إذا ما قام بأي حركة معادية للحكومة[1]. لم تكن لجمال أسباب حقيقية لتحدي اسطنبول. ومن العدل القول إنه لم يكن يتوقع نهاية مأساوية للحرب، وأنه كان يتوقع يقيناً بأنه سيحتفظ بدوره الوزاري في نهاية الحرب ولذا كان عليه الحفاظ على احترام زملائه[2].

ومع ذلك، فإن مخطط جمال بالتخلي عن اسطنبول وإقامة حكمه الخاص في سورية لم يكن فقط صناعة مخيلة مخبري الحلفاء ودبلوماسييهم. فالمقربون من جمال ربما شكوا بمثل هذا التصرف. علي فؤاد أردن، ممثل جمال باشا في سورية، يروي في مذكراته محادثةً له، في حفلة عشاء مع أسعد الشقيري، النائب السابق لعكا في البرلمان العثماني، ومفتي الجيش الرابع فيما بعد، تبيّن ما كان من ثوابت مثل هذه التجمعات[3]. ففي مناسبة خاصة، يؤكد أردن، اختار الشقيري تسلية الحضور بقصة عن معاوية تروي كيفية استجوابه للعلماء حول مخططات حكمه الوراثي، وكيف قام بتسميمهم عندما شعر بمعارضتهم له. وبعد رواية القصة سأل أردن جمال باشا، في إشارة واضحة: «لو كان على سعادتك أن تقرر تنفيذ مخطط معاوية نفسه، فمن هم الذين سيتلقون الشراب المسمم؟»[4].

ليس من أهدافي في هذا البحث التعاطي مع تفسيرات نفسية لسيرة جمال. إلا أنه لا يمكن أن ننكر أن الباشا قد نجح في فرض نفوذه في الحالات الطارئة، إن في اسطنبول أو في دمشق. وكقائد للجيش، أشار فالكنهاين إلى جمال بأنه «خُلق ليحكم»[5] وذكر لأردن أنه «الأمبراطور غير

(1) AA. Turkei 177/Bd. 12. Loytved to Bethmann-Hollweg. No. 37. Damascus, January 9, 1916.

(2) G. Wiegand, Halbmond, 202.

(3) T.E. Lawrence describes Shuqayr as «a fat ecclesiastic... and a notorious pro-Turk pimp»; Seven Pillars, 432.

(4) Dünya (1952).

(5) Erden, 106.

المتوّج لسورية وغرب الجزيرة العربية». ووصف أردن حضور الجمهور العام في تجمع له في جامع الأقصى في القدس بعد صلاة الجمعة، بأنه جاء، كما يدعي أردن، على نسق الخليفة عمر[1]. تيودور ڤيغند، مهندس، أركيولوجي، ولاحقاً عضو في الأكاديمية العلمية في برلين[2]، أشار في مذكراته إلى دهشته لنقش اسم القائد على الأعمدة الحجرية الضخمة التي أقيمت في الصحراء لتشير إلى أماكن المياه[3]. ومن الأكيد أيضاً أن الباشا كان وراء إطلاق لقبه غير الرسمي، والشائع «جمال باشا العظيم»، لتمييز نفسه عن مرسنلي جمال باشا الذي خدم أيضاً في سورية.

عثمانية جمال وتأييده للحركة الإسلامية

اعتدنا أن ننظر إلى جمال كواحد من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذي كانوا على مسافة قصيرة من مركز السلطة في كل من المجال السياسي، وذلك لعدم تسلمه مراكز وزارية أساسية؛ وفي المجال الجغرافي، لتعيينه حاكماً في مركز بعيدة في المقاطعات الآسيوية. وعلى الرغم من قبوله على أنه الرجل الثالث القوي للجمعية، فإنه يعتقد بأن علاقته مع أنور وطلعت، الشخصين القويين من «الترويكا» كانت مضطربة وقائمة على أساس قوي من المنافسة. هذه الافتراضات تعطي بعض المصداقية لتوجهاته الاستقلالية ومخططاته الانفصالية السلالية المزعومة. إلا أن واحدةً من التقديرات لجمال باشا تؤكد أنه بقي ولغاية عام 1915 «ركناً من أركان الترويكا» كما أنه لاحقاً، «خلال الحرب لم يظهر أي توجهات لترتيب اتفاقات منفصلة مع الحلفاء»[4].

ربما كان صحيحاً أن هناك منافسة بين طلعت، وأنور، وجمال، إلا أن

(1) Erden, 108.

(2) Wiegand, Halbmond, 16. (In Denkmaler, Cemal refers to him as «Director ans den Königlichen Museen in Berlin»).

(3) Wiegand, 188.

(4) Alan Palmer, The Decline and Fall of the Ottoman Empire (London: John Murray, 1992).

وجود أي توتر في العلاقات بينهم لا يجعل من جمال منشقاً أو خارجاً. إن قيادة الاتحاد والترقي كانت أكثر تعدداً وتنوعاً مما يتضمنه تعبير الترويكا الشائع. ولقد بقي جمال ملتزماً بالإيديولوجية العثمانية لجمعية الاتحاد والترقي وعمل على نشرها بدرجات متفاوتة. كما أن مدى اهتمام قادة الاتحاد بفرض أنفسهم في الحكومة مباشرة بعد ثورة 1908 كان محدوداً جداً. قيادات النظام القديم هيمنت على الحكومات الأولى لفترة حكم تركيا الفتاة. ولم يكلف جمال فقط بأعمال خارج العاصمة، بل كلّف كذلك أنور والآخرون بأعمال مشابهة. ومن هنا جاءت مهمة جمال كعضو في البعثة الإصلاحية مباشرة بعد الثورة وكذلك تعيينه في أضنة في العام التالي.

مهمات جمال قبل الحرب العالمية وسلوكه في مناصبه الحكومية قبل عام 1914 ألقت الأضواء على سياساته في سورية خلال الحرب. لقد عينت اسطنبول جمالاً في مركز الحاكمية في مجموعة من المناطق حيث كان الحكم القاسي ضرورياً. ولذا، ذهب جمال إلى أضنة حيث قمع انتفاضة أرمنية. والأكثر ارتباطاً بمهمته اللاحقة في سورية كان تعيينه حاكماً لبغداد. بدأ جمال عمله في بغداد في فترة انعطاف هامة. حيث نشأت أزمة سياسية بسبب إعطاء حقوق حصرية لشركة لينش البريطانية بالإبحار في نهري دجلة والفرات مما أدّى إلى تنامي الشعور المعادي للحكومة في العراق، وشاركت فيه أيضاً عناصر محلية مؤيدة للاتحاديين، وأصبح دور جمال في العراق أكثر خطورة بعد اندلاع الحرب مع إيطاليا حول ليبيا في خريف عام 1911. اتهم معارضو الاتحاديين، العرب وغير العرب، الحكومة بالإهمال في طرابلس وبرقة التي وصلت إلى حد التخلي عن هاتين المقاطعتين إلى إيطاليا، في إشارة مزعومة إلى أن الحكومة لا تهتم إلا قليلاً بمقاطعاتها العربية.

بدأ جمال باشا مجموعة من الإجراءات التي هدفت، من ناحية إلى إعادة الولاء العراقي إلى الخلافة العثمانية وإلى مشاركة العراقيين بأعمال الحكومة، ومن ناحية أخرى إلى إسكات أي معارضة. عكست سياسات جمال اللاحقة في سورية أعماله في بغداد. مع اندلاع الحرب الليبية، نظم جمال

مظاهرات مؤيدة للحكومة باستنفاره أعضاء بعض العائلات النبيلة النافذة[1]. وبينما كان يحاول استخدام العائلات النبيلة وتعاونها لخلق رأي عام مؤيد للحكومة، قام بقمع المعارضة. وفي نهاية عام 1911، ظهر حزب الحرية. وتمكن جمال باشا من شل مساعي منظمات الحزب في العراق باضطهاده لمؤسسيه واتهاماتهم بمخالفة القوانين. وخلال الانتخابات العامة في ربيع العام 1912، ضمنت إجراءات مماثلة نجاح الاتحاديين في بغداد، وفي بعض المقاطعات العراقية الأخرى، وسط احتجاجات صاخبة ضد تدخلات الوالي في الانتخابات[2].

بعد عام 1913 قامت النخبة السياسية العثمانية في اسطنبول بعرض مفهوم متجدّد للعثمانية مصقول بتركيز متجدّد على الإسلام. لم تكن سياسات جمال في سورية استثناءً ضمن هذا التوجه، فقد أظهرت مساعيه رغبةً في السيطرة على الصحافة السورية لإبراز الإيديولوجية الإسلامية. هذه السياسات لا تتوافق مع وجهة النظر القائلة بأن حكم جمال باشا في سورية كان يمثل المسعى الأخير لتتريك سورية التي كانت تعاني من الضغوطات الناتجة عن الحرب والفرص التي تهيأت بسبب ذلك. في الواقع، كان جمال وكما وصفه أحد تلاميذ الدعاية العثمانية زمن الحرب، «مؤيد متألق للحركة الإسلامية»[3].

يبدو أن تنظيم حملة إسلامية دعائية شاملة قد بدأ بالحصول على اهتمام خاص في ربيع عام 1915. ففي مذكرة أرسلت إلى جمال باشا، من الواضح أنها كتبت من قبل نائب القائد العام أنور باشا وكانت نسختها الأولى بالفرنسية، وضعت تفاصيل الأهداف التي تقف وراء تأسيس جهاز دعائي وبينت الأفكار المتعلقة بتصرفات منظميها، ومن ذلك إنشاء صحيفة[4]. الهدف الذي يجب أن تبرزه الجريدة المخطط لها كان تنوير المسلمين داخل وخارج

(1) ATASE 12/34-35 (11/10/02).
(2) DH-STS 83-1/2-42 (12/3/20).
(3) Fottfried Hagen, Die Türkei im Ersten Weltkrieg (Frankfurt: Peter Lang, 1990), 21.
(4) ATASE WWI 531]843-2078; No. 1 (29 May 1915).

الأمبراطورية. وحتى صدور مثل هذه الجريدة الرسمية، تم اقتراح الاستفادة من المجلات التي تنشر حالياً في سورية، ومن بينها الرأي العام، اتحاد الإسلام، البلاغ، الإقبال، واللاذقية. ولحظ المشروع إعانات مالية شهرية تتراوح بين 10 و25 ليرة لهذه الجرائد وتحديد كمية الورق الضرورية للحصول عليها من ألمانيا. وكان على هذه الجرائد التعاطي بالمسائل المحلية والعالمية وأن تتضمن أخبار الحرب وكذلك تلخيصات مفيدة من جرائد العاصمة. وسيتم مكافأة أي إسهامات من رجالات سورية وكتابها المميزين. وتمّ اقتراح اسم شكيب أرسلان باعتباره الشخص المناسب لتحمل مسؤولية هذه العملية الدعائية في سورية. وكان متوقعاً منه مراقبة محتويات الجرائد والإشراف على مقالات المؤلفين السوريين.

وتدل هذه المبادرة على أنه في السنوات السابقة لعام 1915 لم تقم الحكومة العثمانية بتقدير الدور الذي يمكن أن تلعبه الصحافة وإنما كانت مقتنعة أيضاً بأن صحافة مسيطراً عليها في سورية ستؤدي إلى إضعاف أثر مجموعة الصحافيين العرب[1]. رحب جمال بالمبادرة ورد بأنه قد باشر بالفعل بهذا النوع من العلاقات مع بعض الصحف السورية كما هو مقترح في المذكرة. وبالفعل، وفي مناسبات مختلفة قبل قدومه إلى سورية لجأ جمال إلى فرض الضغوطات على الصحافة من أجل صقل أو تسهيل السياسة الرسمية[2]. كما اقترح إضافة مجلتي «المقتبس» و«المفيد»، وهما من الجرائد المعارضة البارزة في كل من دمشق وبيروت، والمعروفتين بتعاطفهما مع القضية العربية. وأصر جمال كذلك على أن المعاشات يجب أن تدفع من مركزه للتوصل إلى أفضل النتائج. وهذا الطلب يظهر أيضاً أن جمالاً كان مهتماً بإقامة محاسيب شخصيين له من القادة السوريين، إلا أنه قام بذلك بدعم من اسطنبول[3]. وأصرّ أيضاً بأنه ينبغي أن لا يكون هناك تدخل ألماني

(1) راجع رشيد الخالدي حول دور الصحافة في الحركة العربية.

(2) Memoirs, 161.

(3) Nos. 2-2 and 2-3.

مباشر في هذا المشروع. لقد كان الألمان مهتمين بأكثر من مجرد تأمين ورق الطباعة. لقد أراد ماكس فرايهر فون أوبنهايم رعاية جريدة لهم في دمشق[1]. وأخيراً، اقترح جمال أنه، بالإضافة إلى تمويل الجرائد السورية الأساسية، يجب العمل على نشر جريدة رسمية في دمشق[2]. وعبَّر جمال عن تحفظاته على الثقة المعطاة لشكيب أرسلان لتنفيذ المشروع، لأنه كدرزي، برأي القائد العسكري، يمكن أن يضعف أهداف الحكومة في أعين العلماء.

جهود الدعاية الإسلامية ساهمت في تهدئة ردة الفعل الجماهيرية حول أول مجموعة من الإعدامات التي نفذها جمال في سورية عام 1915، وألغت الإعدامات وجود المعارضين السياسيين. كما أن اعتبار الضحايا متآمرين مع قوة أجنبية كان يتناسب مع الدعاية الإسلامية. وأظهرت المراسلات اللاحقة من جمال إلى أنور بأنه قد نجح في إغراء مالكي الجرائد السورية الأساسية: المقتبس، البلاغ، الرأي العام، الإقبال، اتحاد الإسلام، بتوقيع اتفاق معه ينص على تقديم إعانات مالية لهم، ولكن أيضاً، وبدون شك، بعد إخافتهم. عبد الغني العريسي يمكن أن يكون قد أعدم بسبب عدم استجابته بالتوقيع على هذه الاتفاقية. وكتب جمال إلى أنور بأن الاتفاقية مع جريدة المفيد أصبحت لاغية لأن مالكها، العريسي، قد حكم عليه بالموت في محكمة الحرب وأن جريدته قد أُغلقت[3]. ويبدو أن المرتبات الشهرية المعطاة للجرائد الأخرى قد ارتفعت بما يتناسب وحجم معارضتها السابقة للنظام. ولذا، حصلت المقتبس على 22,5 ليرة، والرأي العام على 19 ليرة، والبلاغ على 15 ليرة، والإقبال على 12,5 ليرة، واتحاد الإسلام على 10 ليرات. وقد حثّ جمال أنور على البدء الفوري بإنشاء الجريدة الحكومية الرسمية في سورية، الإسلام، لأن الوقت مناسب الآن، وأن يكون هذا المشروع بإدارة شكيب أرسلان، لأنه لم يتمكن من إيجاد شخص أكثر ملاءمة منه.

(1) See Hagen, 33-31.

(2) 2-7, 2-8 (8 September 1915).

(3) 2-9, 2-10.

برنامج جمال للأشغال العامة والبناء

انخرط جمال باشا في سورية في برنامج شامل للبناء والتأهيل، خلفية جمال أهّلته للقيام بمثل هذا البرنامج. لقد خدم سابقاً كمفتش عسكري لخطوط حديد الروملي قبل ثورة تركيا الفتاة، وكوزير للأشغال العامة في الأشهر الأولى من حكومة سعيد حليم باشا.

أحاط جمال نفسه بمجموعة من الضباط الألمان لاستشارتهم في مسائل البناء والتأهيل. وكتب أردن، أن جمال باشا قد أبقى حوالي عشرة مستشارين، كان خمسة منهم على الأقل، (وخاصة المسؤولين عن الصحة العامة، الآثار، العمارة، البناء والمياه) من الألمان. إن إرسال عدد من الضباط المثقفين جيداً، والذين احتل العديد منهم مراكز رفيعة في الحلقات الأكاديمية الألمانية بعد الحرب، إلى سورية يستحق المزيد من البحث لجهة ارتباط العلاقات العثمانية ـ الألمانية مع سياسة ألمانيا زمن الحرب. تقترح بعض الروايات أن هؤلاء الضباط قد أرسلوا للعمل في مجالات لا ترتبط مباشرة بمجال اختصاصاتهم، إلا أن الحظ والظروف هما اللذان قذفا بهم للعمل المباشر بإمرة جمال.

مذكرات أحد هؤلاء المستشارين، تيودور ڤيغند، تقدم أيضاً روايات شاهد عيان هامة لزمن جمال في سوريا. قدم ڤيغند إلى سوريا في كانون الأول (ديسمبر) عام 1914 قبل دخول الأمبراطورية العثمانية الحرب، وأعطي مهمة رئيس الأركان في ظل المرسنلي جمال باشا («جمال الأصغر»)، الذي كان قائداً للجيش الثامن في سيناء. ويصف ڤيغند مهماته في هذه المرحلة على أنها كانت تقوم على التأكد من جهوزية حملات الجيوش العثمانية من ناحية التدريب، والمعدات، والفعالية[1]. وبالنسبة إلى ڤيغند، لقد عين رئيساً للأركان لجمال باشا (العظيم) بعد حملة القناة الأولى في أوائل عام 1915

(1) Wiegand, Sinai, 2.

للإشراف على التحضيرات للحملة الثانية[1]. وڤيغند يمكن أن يكون قد أرسل إلى سوريا تحت ستار ضابط إمدادات للقيام بتحريات سرية. ويمكن لهذه التحريات أن تكون، إن كانت حقيقية، محصورة بالتجسس العسكري أو أن خدماته كان ينظر إليها كجزء من مشروع استعماري، وتبقى الإجابة عن هذا السؤال مجرد تخمينات (من المفترض أن فون كريس قد أوحى لجمال بمثال حملة نابليون إلى مصر)[2]. لقد خدم ڤيغند لثلاث سنوات في سورية ناذراً نفسه لمهمة إعادة البناء، والتطوير، والقيام بالدعاية اللازمة للأبنية التاريخية.

كان موهلنز، مستشار جمال لموضوعات الصحة العامة، وقد كتب تقريراً مفصلاً حول الأمراض المعدية وتأثيراتها على الصحة العامة، ونفّذ جمال تعليمات موهلنز التي تضمنت تجفيف المستنقعات ومدّ أنابيب فولاذية لنقل الماء في بعض الأماكن. وكان زورخر الأكثر تقديراً من الضباط الآخرين في مجموعة جمال على الرغم من أنه ربما كان أقل فاعلية في عمله من ڤيغند. وزورخر الذي كان من أصل سويسري، كان مهندساً معمارياً بارعاً ودرس في زوريخ، وبرلين، وباريس وفلورنسا. ولقد كان له تأثير أكبر على جمال من البقية، وتحققت طلباته التي تضمنت استيراد طاولات رسم خاصة ومعدات أخرى للهندسة المعمارية من ألمانيا سريعاً. وكاختصاصي في التخطيط المديني وإعادة تجديد الأبنية، أعطي مسؤولية التطوير المديني في المدن السورية[3]. وبناء على اقتراح زورخر دخل شولز، الذي أصبح لاحقاً أستاذاً للعلوم السياسية في جامعة هايدلبرغ، في خدمة جمال باشا في كانون الأول/ ديسمبر 1917[4]. وكان ذلك قبل وقت قليل من مغادرة جمال لسورية. وأوكل إلى شولز مهمة وضع مخطط إصلاحي للأناضول بعد عودة جمال إلى

(1) ومن الغريب أن جمال باشا يروي في مذكراته أن ڤيغند قدِم إلى سورية في آب (أغسطس) عام 1916.

(2) Erden, Suriye, 143.

(3) Erden, Suriye, 136-142.

(4) Hatiralar, 402.

اسطنبول، إلا أنه لم تتح له الفرصة للاطلاع على هذا المشروع، لأنه كان على جمال مغادرة البلاد في نهاية عام 1918.

تضمن برنامج جمال في سوريا ثلاثة مشاريع. **الأول** كان عسكرياً بالأساس وارتبط بالحملتين على قناة السويس عامي 1915 و1916 وكان استجابةً لاعتبارات عسكرية تتعلق بالإمدادات. أما المشروع **الثاني** فكان برنامجاً للأشغال العامة ولم يكن مرتبطاً مباشرة بالمساعي العسكرية إلا أنه سار بشكل متوازٍ مع المجازفات المرتبطة بالعمل العسكري. أما **الثالث** فكان برنامجاً لحماية الآثار التاريخية والذي هدف أيضاً إلى نشر المعرفة حول المنعطفات التاريخية الهامة في سورية. ومن المهم بشكل خاص فحص محتوى المشروعين الثاني والثالث اللذين سعى جمال إلى استغلالهما في إظهار توجهاته الإيديولوجية. خدمت الإجراءات العسكرية أيضاً العمل التوحيدي لفضيلة تركيزها على حركات الجنود والإمدادات الفعالة للوحدات العسكرية في سورية. وكانت هذه المشاريع الثلاثة في بعض الأحيان متداخلة وفي بعضها الآخر متكاملة.

الأعمال العسكرية

1) إقامة وتعزيز خطوط الإمدادات

إن الصعوبات التي واجهها جمال باشا في انتقاله من اسطنبول إلى دمشق، وخاصة من جنوب الأناضول إلى حلب، قد أقنعته بإقامة خطوط مواصلات يمكن الاعتماد عليها بين سورية والأناضول[1]. لم يكن هناك خطوط حديدية أو طرق معبدة تصل بين المنطقتين. كما لم يكن الجزء من الطريق بين العثمانية والقطمة صالحاً كطريق مواصلات للسيارات. أراد جمال باشا المباشرة ببناء طريق من بوزانتي بالقرب من أضنة باتجاه الجنوب، ويبدو أن هذا المشروع لم يحظَ باهتمام الهيئات المركزية في اسطنبول[2]. ولذا،

(1) Ibid., 386.

(2) Wiegand, Sinai, 30.

تحول جمال للاهتمام بتطوير الطرق التي تمر في المقاطعات الخاضعة لسلطته، وفوّض والي حلب، جلال بك، بإصلاح الطرق المعبدة الممتدة من الإصلاحية إلى قطمة وبين الإسكندرون وحلب. وقدم للوالي ومهندسيه قوة بشرية من المجندين مع ضباطهم وجعل معاشاتهم من ميزانية الجيش الرابع. وخلال ثمانية أشهر من وصوله إلى سورية أمّن جمال طرق مواصلات الإمدادات والذخائر إلى الجيوش الثاني، والرابع، والسادس في الجنوب.

ثم انتقل جمال باشا إلى إقامة طريقين حجريين يمتدان إلى فلسطين. الأول منهما يمتد من دمشق (من خلال طبرية) إلى نابلس ويرتبط بالخط القائم الذي يربط بين نابلس والقدس وطوله 70 كلم. أما الطريق الثاني فيصل بين عمان وجرش ويرتبط بالطريق القائم بين جرش والقدس. وهكذا أقيمت بنهاية عام 1915 طرق مواصلات للسيارات تمتد من القدس شمالاً إلى دمشق وشرقاً إلى خط حديد الحجاز. وأطلق جمال على عام 1915 عام «البناء والتحصين»[1]. وقدم الجيش الرابع المعدات وقوة العمل اللازمة للبناء. وخلال زيارة أنور باشا، القائد العام للقوات العثمانية، لسورية والحجاز في شباط عام 1916 كان من الممكن أن ينتقل إلى عمان بواسطة السيارات[2].

ونحو الجنوب كان الخط الذي يمتد بطول 35 كلم من القدس إلى حيفا بحالة مرضية، ولذا ركز جمال على تعزيز الطريق الذي يصل بين حيفا وبين سبع، والذي انتهى العمل به خلال شهرين، على الرغم من أن المزيد من التأهيل قد استغرق ستة أشهر إضافية. ولاحقاً، تم توسيع الشبكة من ناحية عسلوج وحافر فالعوجة شرقاً، ومن ناحية بير حسنة على مسافة 100 كلم من قناة السويس[3]. بالإضافة إلى تأهيل الطرق التي تربط بين القدس ـ يافا والقدس ـ بيروت[4].

---

(1) Hatiralar, 218.

(2) Ibid., 387.

(3) Wiegand, Sinai, 31.

(4) Hatiralar, 388.

وأدى فشل الحملتين على قناة السويس وتقدم القوات البريطانية نحو سورية إلى دفع الجبهة إلى خط غزة ـ بير سبع ودفع ذلك بجمال باشا إلى زيادة طرق المواصلات بين سورية وفلسطين لتعزيز ما تصور بأنه سيكون الجبهة العسكرية الجديدة. وأقام لذلك طريقين جديدتين. الأولى تبدأ من رياق، وتقطع البقاع، وتتجه جنوباً بموازاة نهر الأردن. أما الطريق الثانية فتبدأ في درعا وتمتد باتجاه جنوبي شرقي نحو عجلون قاطعةً نحو الشارية. وكان العمل في هذه الطرق ما يزال مستمراً عندما ترك جمال سورية[1].

بناء الخطوط الحديدية

واستمر جمال باشا في تعزيز خطوط المواصلات بين سورية، وفلسطين، وسيناء وذلك بإقامة خط حديدي موازٍ للطرق التي انتهى العمل بها. وبقي الخط الحديدي القائم بين القدس وحيفا (من ناحية درعا) على حاله ولم يتم توسيعه ليشمل القدس وما بعدها نحو سيناء[2]. وفي عام 1915 ـ 1916، أقيم خط حديدي جديد ينطلق من السعودية (عن طريق الرملة) ويتجه إلى أسفل نحو بير السبع بإشراف مايسنر باشا، الذي شغل منصب المهندس الرئيسي لخطي حديد الحجاز وبغداد، وصار أيام ولاية جمال مسؤولاً عن ربط خط حديد الحجاز مع مصر[3]. توسيع السكة الحديدية في المنطقة الممتدة بين الرملة والقدس أدت إلى ربط مباشر بين القدس ودمشق. وبين أيلول 1915 وربيع عام 1916 كانت الخطوط الحديدية تمتد من بير سبع (باتجاه عسلوج وحافر العوجة) إلى القسيمة داخل الحدود المصرية[4]. واستمرت هذه الطريق نحو سيناء إلى منطقة بير حسنة بخط ضيق عام 1916. وأقيمت خطوط فرعية من الخط الأساسي نحو مناطق الغابات لتأمين الموارد من الأخشاب. وأقيم خط فرعي أطول (40 كلم) ينطلق من التينة ويلتقي مع

(1) Hatirat, 388.

(2) Ibid., 386-7.

(3) Wiegand, Sinai, 30; Hatiralar, 392-393.

(4) Hatiralar, 393; Wiegand, Sinai, 31.

خط غزة ـ بير سبع القائم وذلك لتسهيل وصول الإمدادات إلى الجبهة. وبين عامي 1915 و1916، قام الجيش الرابع ببناء حوالي 500 كلم من الخطوط الحديدية(1).

اقتضت إقامة الطرق والخطوط الحديدية في الصحراء قوة عمل تتراوح بين 4000 و5000 عامل. ولتفعيل هذه العمليات وحماية مراكز الإمدادات في بير سبع، أنشأ جمال باشا قيادة الصحراء بإمرة فون كريس. وبالتزامن مع الطرق، تم توسيع خطوط التلغراف، والتمديدات المائية، وانتشرت المخازن، والمستشفيات الميدانية على طول طرق المواصلات(2).

وبينما ساهمت الطرق والخطوط الحديدية التي أنشئت من قبل جمال باشا في تسهيل الاتصالات في سورية وفلسطين، إلا أن أولوية الاعتبارات العسكرية كان لها آثار تراجعية على مستوى البنى التحتية. ودمرت بعض الخطوط الحديدية القائمة ذات القيمة الاستراتيجية المحدودة واستخدمت موادها في الخطوط الجديدة. ودمرت كذلك العديد من الأراضي المشجرة لاستخدام أخشابها في بناء الطرق الحديدية وكوقود للقطارات. لقد سمح جمال باشا بقطع أربعين بالمائة من أشجار المشمش، والزيتون، والتوت، لاستخدامها كوقود للقطارات. وعلى الرغم من استثناء أشجار التوت لاحقاً، فإن خطوطاً من الأغصان التي تملأ البساتين امتدت من قرى مثل حيفا، إلى عمان، ومعان للهدف المذكور وهو الحصول على الخشب، وقد نفّذ هذه العملية حوالي 20,000 جندي(3).

وفي بير سبع، والقسيمة والحافر، وبشكل يتناقض مع صورة القضاء على الأشجار، أقام جمال باشا مزارع تجريبية لتربية الأشجار والأزهار وحدائق الخضار. وكتب جمال في مذكراته أنه قد قدم في هذه المشاريع

(1) Hatiralar, 394.

(2) Ibid., 213, 389.

(3) Erden, 248-250.

خدمات قيمة مفيدة طبقت في المشاريع الزراعية اليهودية لاحقاً[1]. وفي الشمال، تم تغيير حوض نهر الليطاني لمنع الأضرار الناتجة عن فيضانه في البقاع. وبإشراف سوتنر، مستشار جمال في القضايا المتعلقة بالمياه، ابتدأت مشاريع تجفيف المياه وزراعة الأراضي[2].

تحسين المدن

استخدم جمال باشا المساعدات التقنية والمعرفة المتخصصة التي قدمها له الضباط الألمان والاختصاصيون الآخرون في أماكن تخطت حدود الجبهات، وبالأخص داخل المراكز السكنية وحولها. قدمت بعض المشاريع خدمات ضرورية لتعزيز مستوى الحياة المدنية. وفي هذا المجال كان مشروع الحصول على مياه عذبة لحلب بعد انتشار وباء التيفوئيد فيها عام 1915، من منطقة تبعد ثلاثة أميال خارج المدينة. هذا المشروع نفّذه مهندس من الجالية الألمانية في حيفا (شوماخر)[3]. المشاريع الأخرى كانت ذات طبيعة تدعم الأهداف العسكرية، مثل إقامة مطحنة ميكانيكية للدقيق في بير سبع[4] وإقامة مواصلات بحرية عبر البحر الميت لنقل المواد الغذائية[5].

وكان هناك العديد من المشاريع الأخرى، بعضها أنجز خلال فترة حكم جمال باشا في سورية، ولم تكن لها دواعٍ عسكرية ولذا فإنها لم تكن محصورة في مجال مهنة الباشا كقائد، وهكذا فإنّ التطويرات المدنية كانت لها المرتبة الثالثة في أولوياته في سورية بعد المساعي الحربية والمحافظة على الأمن الداخلي. وبالفعل، فإن كمية كبيرة من الموارد قد صرفت على هندسة الأراضي وبعض المشاريع التجميلية الأخرى، مثل إنشاء الحدائق العامة في بير

(1) Hatiralar, 391.

(2) Ibid., 401.

(3) Hatirat, 403.

(4) Hatiralar, 391.

(5) Ibid., 400.

سبع. وبالرغم من أن النساء والأطفال كانوا يموتون جوعاً في المدن والقرى، والجنود أيضاً في خطوط المواجهة، فإن هذه المشاريع قد استمرت. كان سبب المجاعة الأساسي انعدام المؤن، إلا أن تحويل الأموال، والعمال، والمعدات، والمواد للبناء جاء استهزاءً بالفقر المدقع والموت في سورية[1]. وشرح جمال الغاية من وراء إقامة مجمع للنوادي والمقاهي في بيروت، وهو التنازل الذي قدمه لألفرد سرسق، لتأمين مورد رزق للفنانين والحرفيين في المدينة[2].

كان للباشا اهتمام خاص في بناء شرايين مدينية، لأنها تخدم في إبراز سلطة الحكومة في المدينة. في عام 1915 بنى جمال باشا في يافا جادة بطول كيلومتر. وكان يفتخر بشكل خاصة بالجادة التي أقامها في دمشق بعرض 45 متراً وبطول 650 متراً[3]. ويصفها بأنها «لا مثيل لها في جمالها في أي مدينة شرقية»[4]. ومن الواضح أن هذه المشاريع قد لاقت استحسان اسطنبول لدرجة أن أنور باشا قد رتب عملية دخول زورخر في خدمة جمال.

التحق زورخر بالقيادة العسكرية عام 1916. وجعله جمال مدير الإنشاءات وتجول معه على مباني القدس. بقيت معظم المشاريع التي وضعها زورخر على الورق لأن الرجلين تركا سورية في نهاية العام التالي. إلا أن هذه المشاريع تظهر محاولات جمال باشا لإقامة مبانٍ في أماكن مرتفعة يراها الجميع كتذكير بالسلطة الحكومية. ولذا، كانت هناك مخططات لإقامة مركز حكومي وقصر قريب من جدران القدس ومخطط لتوسيع الشارع الرئيسي بمدينة دمشق وإقامة مراكز حكومية على طوله. وفي بيروت ستقام سلالم

(1) L. Sonatkowski Schilcher, «The Famine of 1915-1918 in Greater Syria» in Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective, ed. Zohn Spagnola (Reading: Ithaca Press, 1992), 229-58.

(2) Hatiralar, 398.

(3) يقول جمال باشا إن هذه الجادة قد بناها مهندس معماري يهودي اسمه فيل بوسفيتش (ص 395).

(4) Hatiralar, 398.

عريضة من الشاطىء إلى السراي الحكومي. كما تم تخطيط إقامة مبنى حكومي لحلب.

لقد كان جمال مهتماً بشكل خاص بهذه المشاريع. فمثلاً، عام 1917 أوكل إلى ك. وولزنجر أن يضع تصميماً لبركة ماء في مواجهة محطة سكة حديد الحجاز في دمشق وقدم له تفاصيل المشروع: البركة يجب أن تكون شرقية في شكلها ولكن لا ينبغي أن يكون لها سقف مثل البرك العامة؛ ينبغي أن يكون لها شلالات صغيرة لا تغطي منظر المحطة؛ ينبغي أن يكون فيها أسود، وأحدهم يحمل العلم العثماني في كفه[(1)].

وفي عام 1917، نشرت صحيفة جنيف مقالة تنتقد فيها جمال باشا لتركه المعالم العربية (ومن بينها قبر صلاح الدين) تتهدم. كارل وولزنجر، مساعد ڤيغند، كتب رداً أوضح فيه برنامج جمال للتجميل المديني[(2)]. ومن المفيد الاطلاع على هذا المقال، والدوافع من ورائه وأهدافه. تبقى الحقيقة أن جمال باشا قد بذل مسعى خاصاً لحماية وتجديد معالم سورية، وهي مساعٍ ربما كانت أكثر غرابة من برنامجه للتطوير المديني مقارنة مع خلفية جمال العسكرية. وقبل تفصيل مساعيه للحماية، لا بد من ذكر المؤسسات التربوية التي أقيمت برعايته.

كان جمال باشا رائداً في إقامة العديد من المؤسسات التربوية بما فيها مدرسة زراعية في البقاع، ودار للمعلمين في حلب، ومدرسة صلاح الدين الأيوبي في القدس. ولقد أظهر اهتماماً خاصاً بتعليم البنات. لقد تأثر جمال بشخصية خالدة أديب، المفكرة النسائية والروائية (التي قادت حركة تعليم النساء وزارت جمال باشا في سورية)[(3)]، ولذا أنشأ عدداً من المدارس للبنات، وليسيه داخلية في بيروت؛ ومدارس ابتدائية في بيروت ودمشق مع تأمين تسهيلات للسكان؛ وكذلك مدرسة صناعية في بيروت مع التخطيط لها

(1) G. Wiegand, Halbmond, 232-233.

(2) G. Wiegand, Halbmond, 237.

(3) Falih Rifki Atay, Zeytindagi (Istanbul, 1943), 48-49.

لاستيعاب ما بين ثلاثة وأربعة آلاف طالب(1).

الحفاظ على الآثار التاريخية

في تشرين الثاني/نوفمبر 1916 دخل تيودور ڤيغند في خدمة جمال باشا كمفتش عام للآثار في سورية وفلسطين وبمهمة بحثية لا تشمل المباني التركية والإسلامية في دمشق وحلب وحسب، وإنما أيضاً كل المباني الأخرى الهامة، والإعلان الدعائي عنها(2). وكان جمال قد بدأ تجديد الآثار التاريخية. وتحت الإشراف الرسمي لڤيغند، ازدادت سرعة عمليات التجديد، والمحافظة، والدعاية. وفي الوقت الذي كانت فيه القدس قد وقعت تحت الاحتلال البريطاني في نهاية عام 1917، كانت عمليات التجديد ما تزال مستمرة في حلب، مما دفع أحد الضباط الأتراك إلى التذمر قائلاً: من الجيد أن يدافع الباشا عن الماضي، لأن الجيش... بعد خسارته القوية أمام القوات البريطانية... كان مشغولاً بتحدي الحداثة(3). وقد تساءل ڤيغند نفسه عن جدوى المساعي في المجال الثقافي. وفي ربيع عام 1917، أحضر جمال باشا دكتور غيلن، وهومربي صهيوني وباحث، إلى دمشق وأوكل إليه مهمة فهرسة المكتبة الإسلامية (الظاهرية؟). وكتب ڤيغند يقول: «المساعي الثقافية تتقدم أكثر فأكثر هنا [يعني في دمشق] مع أن الأعداء يطرقون أبواب سورية»(4).

وقبل مهمة ڤيغند، حصل جمال باشا على ما يعادل 150,000 مارك ألماني من وزارة الأوقاف لإعادة ترميم وتجديد جامع السليمية في دمشق والذي بُدئ ببنائه عام 1518(5). كان اختيار هذا المعلم واضحاً، لقد بناه فاتح

(1) Hatiralar, 399-400.

(2) G. Wiegand, Halbmond, 200-202.

(3) G. Wiegand, Halbmond, 266.

(4) G. Wiegand, Halbmond, 248.

(5) G. Wiegand, Halbmond, 200; Ross Burns, Monuments of Syria (London: I.B. Tauris, 1992), 105.

سورية عام 1518، وكان الجامع رمزاً قوياً للحكم العثماني، رأى ڤيغند أن السلطان سليم كان «مثال» جمال باشا وكان يشبّه نفسه به.

وأراد ڤيغند أن يبدأ عمله في الترميم والتجديد والمحافظة بجامع سليم وبرعاية المؤسسة الألمانية ـ التركية لحماية الآثار «Deutsch-turkisches Denkmalschutzkommando» المنشأة حديثاً. إلا أنه وكما يبدو قد صرف معظم جهوده في الفهرسة والدعاية للمعالم بشكل واسع. بينما ركز زورخر على مشاريع التجديد والمحافظة. ولكن معظم مخططات زورخر التجديدية، مثل مشاريع البناء المديني، لم تصل إلى حد الانتهاء. وقد تضمنت هذه المشاريع ترميم الجامع الأقصى بإلغاء الإضافات الحديثة للبناء وإزالة الدهان عن جدرانه. وكذلك وضعت مخططات لتأهيل الكنائس في القدس وحلب[1].

حضّر تيودور ڤيغند ملفاً لمائة مركز في سورية الكبرى، نشر باسم جمال باشا بعنوان: «آثارٌ قديمةٌ من سورية وفلسطين وغربي الجزيرة العربية». وتألف الكتاب من صور كبيرة لمراكز متنوعة. من ضمنها جوامع دمشق، وحلب، والقدس، ومعابد البتراء وتدمر[2]، أسوار المدن، الحصون، كنيسة القيامة، وحائط المبكى إلخ. وعند نشره كان جمال قد ترك مركزه. وكتب جمال في مقدمة الكتاب في تشرين الأول/أكتوبر عام 1917، أنه قد تهيأت له الفرصة كقائد للجيش الرابع «لدراسة حاجات هذا الجزء القيم من وطني، كما واعتزمت المحافظة على معالمه القديمة وإدارتها بشكل جيد». ووصف إجراءاته، بناءً على تقارير مطولة من ڤيغند بما يلي: خلق سلطة لحماية المعالم؛ منع إقامة مبانٍ جديدة بالقرب من الآثار ومنع استخدام أحجار الخرائب في البناء، تحسين الطرقات التي تؤدي إلى المعالم وتسهيل عمليات الزيارة من قبل الزوار المحليين والأجانب، وفهرسة كل المعالم في المنطقة العسكرية. ويقدم الكتاب، بالنسبة إلى جمال، للمواطنين العثمانيين (الذين

(1) Hatiralar, 397.

(2) هناك صور لمراكز أثرية من كلام أكثر من أي موقع آخر.

أصبحوا «وطنيين» بالمعنى الألماني للكلمة) عدداً من أهم الكنوز العظيمة لوطنهم. أما هدف الكتاب، عندها، فكان يختلف عن أهداف منشورات ڤيغند الأخرى، كما يشرح هو في مقدمة كتابه عن المنشورات العلمية للجمعية التركية ـ الألمانية لرعاية الآثار التاريخية:

الجزء الأول، سيناء[1]. التفاصيل الأكاديمية التي تركت في الكتاب الأول، عرضت في هذا الكتاب الأخير الذي تضمن صوراً جوية لمراكز أثرية قديمة.

في إضافته عام 1991 لكتابه «المجموعات المتصورة» «Imagined Commities»، يناقش بنديكت أندرسون ما يسميه «الخيال المتحفي» «Museumizing Imagination» فاهتمام أندرسون الخاص كان بتصور الدول الاستعمارية في خلق «شرعية بديلة»[2]. وفي هذه المحاولة تقوم الدولة برعاية: «(1) تقارير أركيولوجية تقنية معقدة وواسعة، مترافقة مع عشرات الصور التي تسجل عملية إعادة بناء بعض الخرائب المحددة الخاصة. (2) نشر كتب توضيحية للاستهلاك الجماهيري، تتضمن صوراً عن نماذج لمعظم المراكز الأساسية التي تمت إعادة بنائها. ويبدو أن الخيال المتحفي لجمال قد عبّر عن نفسه بطرق تتشابه بشكل مثير بما يصفه أندرسون.

ويناقش أندرسون، بأن الخيال المتحفي لا يمكن إلا أن يكون «سياسياً في العمق». إلا أنه، وبعيداً عن مسألة إلى أي حد يمكن لشعار طبق في الدول الاستعمارية أن ينطبق على الدولة العثمانية، فإن الأهداف الموضوعة «للخيال المتحفي» التي يحللها أندرسون لا تتوافق مع رؤيتي بأن جمالاً كان ينشر إيديولوجية إمبريالية قائمة على الدين. وكما يرى أندرسون، فإن الاهتمام بالمعالم الأثرية يشكل «إعطاءً لحقوق الملكية للدولة الاستعمارية المهيمنة».

وفي زمن الانحلال بسبب الخسارة في الحرب، والحروب الداخلية،

---

(1) (Berlin: Walter de Gruyter & Co., 1920), no. page number.

(2) Benedict Anderson, Imagined Communities (London: Verso, 1991), 180-182.

والقومية الناشئة، فإن «الشرعية البديلة» التي دعا إليها جمال كانت شرعية توحيدية دعت إلى الإسلام. ويقول بالمر إنه في عام 1917، السنة التي كانت فيها مخيلة جمال الأثرية ناضجة، كان «العضو الوحيد في حكومة طلعت العلمانية بشكل أساسي، الذي تأثر بما يمكن اعتباره اليوم الحماس الإسلامي المولود، من جديد»[1]. إن جمال وزملاءه في اسطنبول قد تحولوا إلى العثمانية الإسلامية، ليس بسبب كونهم قد ولدوا مجدداً في محن الحرب، وإنما بسبب ظهور الإسلام كأداة فعالة سياسياً في محاربة التدخلات الأجنبية والثورات المحلية وفي دعم سلطة الدولة الدينية الشرعية، إن اهتمام جمال الخاص بإبراز التراث التاريخي للفن السوري بهذه الطريقة التي تؤدي إلى سمو التقاليد الإسلامية يمكن في الحقيقة أن يعكس التوجه الإيديولوجي لمستشاري جمال الألمان وحلفائه. إلا أن هذا لا يمنع القول بأن هذا الاهتمام الخاص كان خالياً من أي استيراد سياسي. فكما كتب أندرسون، «إن إعادة بناء المعالم، في وسط الريف الفقير المحيط بها، يجعلها تظهر وكأنها تقول للسكان المحليين: إن وجودنا يُظهر أنكم كنتم دائماً، أو أصبحتم ومنذ وقت طويل، غير قادرين على بلوغ العظمة أو مرحلة الحكم الذاتي»[2].

إن حكم جمال باشا في سورية خلال الحرب العالمية الأولى كان منسجماً مع التزام جمال الطويل بالعثمانية، ووسائله الخاصة لفرض شرعية الدولة. إن ثقل تمسكه بالسلطة ونظرته الشخصية لذاته كإثني تركي ينبغي أن تدرس بشكل أعمق لتبيان أثر طموحه السلالي ـ الانفصالي، أو شعوره القومي ـ التركي على سياساته في سورية وفي الأمكنة الأخرى التي حكمها. إلا أن جمال في النهاية كان يمثل القيادة العثمانية التي كانت ملتزمة بإيديولوجية أمبراطورية للحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية، ونفذت السياسة التي تتناسب مع هذا التوجه. مشاريع جمال للأشغال العامة في سورية، ومساعيه لتحصين الدفاعات العسكرية ولتحسين البنى التحتية، كما

(1) Palmer, 240.

(2) Anderson, 181.

حملته لإعادة بناء المعالم التاريخية، هدفت إلى تعزيز سلطة الدولة في المقاطعات العربية البعيدة، ولتوحيد هذه المقاطعات مع المركز العثماني بشكل أفضل مادياً وإيديولوجياً.